التصوير الفني في الحديث النبوي

عرض الأستاذ: صلاح أحمد الطنوبي

[التَّصويرُ الفنَيّ في الحديث النَّبوي] رسالة دكتوراه، أعدّها الدكتور محمد بن لطفي الصبّاغ، وتقع في ٦٠٧ صفحة. والرسالة في ثلاثة أبواب.. وقدَّم المؤلفُ بحثَه بتمهيد درس فيه ثلاث قضايا:

القضيَّةُ الأولى: كانت إشارةً إلى أنَّ الحديث النبويَّ الشريف نصٌ أدبي يرتفعُ في أدبنا العربي إلى أعلى مستوى يمكن أنْ يبلغه بيان البشر.

وذكر الباحثُ أنَّ هناك جناية على مناهج تدريس الأدب في مراحل التَّعليم في بلادنا عندما يهضم الحديث النبويّ أدبياً.

والحديثُ النبويّ أسلوبه يمتاز بالجزالة والوضوح، والدقة في الوصف والتّعبير، والإبداع في التَّشبيه والتَّصوير، والموسيقى الرائعة في الألفاظ، والإيجاز في القولِ ومجانبة التكلّف.

ومعاني الحديث تغوصُ في أعماقِ النفسِ الإنسانية، وتؤثّر فيها تأثيراً كبيراً، كما أن معاني الحديث إنسانية لم تقيد بظرف الزّمان ولا بظرف المكان، فلم ينظر فيها إلى العربِ

وحدهم، ولا إلى الناسِ في زمنِ النبوّة فحسب، ولا إلى جزيرة العرب وحدها ـ ولا إلى طبقة دون طبقة، وإنما كانت هذه المعاني تنظر إلى الإنسان من حَيْثُ هو إنسان.

[**الرسالة ص ٢٤**]

• **وكانت القضيَّة الثَّانية:** توثيق نصّه ...، وقد قرر المؤلفُ أنَّ الحديث النَّبويَّ قد ظفر بجهودٍ ضخمة في التّحرّي والدقة والتَّثبّت من صحّة نسبته إلى النَّبي ﷺ على وَجْهٍ لم يظفر بها نصٌّ من النّصوص الأخرى.

ومِمَّا يبيّن مدى توثيق الحديث: اتصال السند، عدالة الرواة، ضبط الرواة، سلامة الحديث من الشذوذ، سلامة الحديث من العلّة.

وهذه هي الشروط الخمسة التي يجب أن تتوافر في الحديث ليكون الحديثُ صحيحاً.. [الرسالة ص ٢٨].

وتصدّى المؤلف لشبهة كان يشغب بها كثير من الناس على الحديث النبوي، وهي رواية الحديث بالمعنى، وبيّن المذهبَ الحقَّ في هذه المسألة.

«والذي نرجّحه أنَّ رواية الحديث بالمعنى لم تقع كثيراً للأسباب الآتية:

• لأننا في حياتنا كثيراً ما ينقل بعضنا أقوال بعض معتمدين على السَّماع، وغالباً ما تنقل هذه الأقوال بألفاظها كما نطق بها قائلوها، وقد يتكلّف الناقلُ غيرِ لهجته ليقلّد المتحدث الأصلي، فإذا غاب عن ذهنه لفظ كلمة أتى بما يدلّ عليها، هذا ما يفعله الناس العاديون الصّادقون دائماً في أحاديثهم. فما بالك بمن يروى حديث رسول الله ﷺ وكلامه دين .. لا شكّ في أنّه سيكون أكثر تحرياً وأدقّ نقلاً ... الرسالة ص **٣٤**».

• **وكانت القضيّةُ الثالثةُ:** عَرْضَ جهودِ الباحثين المتقدّمين والمحدثين في دراسة الصورة الفنيّة في الحديث.

بدأ المؤلّف بشيخ كتّاب العربيّة أبي عثمان الجاحظ المتوفي عام **٢٥٥** من هجرة النبي العظيم ﷺ، وأكثر كلام الجاحظ في الحديث كان في كتابه «البيان والتبيين».

وأبو حيان التوحيدي الذي أورد في كتابه الإمتاع والمؤانسة طائفة من الأحاديث النبويّة الشريفة..

«والشريف الرضيّ» المتوفى سنة ٤٠٦هـ درس الصّورة البيانية في جمع من الأحاديث النبوية «تلخيص البيان عن مجازات القُرآن»..

و«ابن رشيق القيرواني » تعرّض في مواضع من «العمدة» إلى التنويه بالحديث النبوي الشريف...

وعبد القاهر الجرجاني في «أسرار البلاغة» .. وابن الأثير المتوفى ٦٢٢هـ في كتابه: «المثل السائر»..

وَمِن جهود العلماء المحدثين في دراسة الصورة الفنيّة: مصطفى صادق الرافعي المتوفى ١٣٥٦هـ «إعجاز القُرآن والبلاغة النبوِّية» .. و«وحي القلم»..

ومن أشهر الكتّاب الذي كتبوا في البلاغة النبويّة الأستاذ أحمد حسن الزيّات في مجلة «الرسالة»، وعباس العقاد في «عبقرية محمد»، وعبد الرحمن عزّام في «بطل الأبطال»، والشيخ مصطفى الزّرقا في رسالته «في الحديث النبويّ»، والشيخ محمد الخضر حسين في «محمد رسول الله وخاتم النبيّين» والدكتور بكري الشيخ أمين «أدب الحديث النبوي»، والدكتور عز الدين السيّد في كتابه: «الحديث النبوي» من الوجهة البلاغية..

○○ **البابُ الأول** «في الصُّورِ الحسيّة والمعنويّة في عالم الغيب». وانقسم هذا البابُ بحسب طبيعة موضوعاته إلى فصولٍ قصيرة تحدثت: عن الله جَلَّ جلاله، وعن يوم القيامة، والجنة والنّار، والملائكة، والشيطان، والفتن..

والغيبُ هُوَ ما يغيب عن الإنسان، والإيمان به أعظم أركان الإيمان، ومنكره كافر بإجماع المسلمين.. والغيب قسيم الشهادة، وعالم الشهادة هو ما يقع تحت حسّ الإنسان وشهادته .. والصور المتعلقة بالغيب متضمّنة في هذه الموضوعات: الله جَلَّ جَلالُه، يَوْم القيامة، الجنّة والنّار، الملائكة، الشيطان الفتن .. متفرقات..

○ **اللهُ جَلَّ جلاله**: حلّل الباحثُ الصُّورَ التي تتعلّق بالذّات الإلّهية من خلال:

وصف الله تعالى، رحمته ومغفرته وغضبه وعقوبته، سعة ملكه وكرمه وإنفاقه، واستغناؤه عن خلقه، عظمته وقدرته، رؤية الله يَوْم القيامة..

ومن الصّور الفنيّة التي تُصوّر رحمة الله تبارك وتعالى الحديث الآتي: عَنْ أبي ذر قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: يقول الله عزَّ وجَلَّ: «مَنْ جَاءَ بالحسنةِ فَلَهُ عَشْرُ أمثالها أَوْ أزيد، ومَنْ جاء بالسيئة فجزاؤه سيئّة مثلها أو أغفر، ومَنْ تقرّب مِنّي شبراً تقرّبت منْهُ ذراعاً، ومَنْ تقرّب منّي ذراعاً تقرّبت مِنْهُ باعاً، ومَنْ أتاني يمشي أتيته هرولة، وَمَنْ لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً لقيته بمثلها مغفرة» [رواه مسلم].

قال النّووي: القراب بضمّ القاف على المشهور، وهُو ما يقارب ملؤها وحكى كسر القاف.

تدلُّ الصُّور التي تضمنها هذا الحديث عَلى أنَّ رحمةَ اللهِ واسعة كبيرة، فلِلّذي يعمل حسنة عشر أمثالها أو يزيد ربُّنا عزَّ وجلَّ أضعافاً مضاعفة، وجزاء مَنْ يعمل سيئّة مثلها أو يغفر الله له .. [الرسالة ص ٩٢].

• **يَوْمُ القيامة**: ومن الصور التي وقف عليها في هذا الموضوع: قرب يوم القيامة، واضطراب معالم الكون واختلال سننه يوم القيامة، المؤمن الطائع يوم القيامة، العاصي والكافر يوم القيامة..

ومن الأمور الغيبيّة المتعلّقة بالقيامة صور تتعلّق بالمحاسبة والحشر والحوض .. عن أبي هريرة «رضي الله تعالى عنه» أنَّ رسول اللهِ ﷺ قال: «لتؤدّن الحقوق إلى أهليها يوْم القيامة، حتّى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» [رواه مسلم].

الجلحاء: التي لا قرون لها .. القرناء: ذات القرون.. يقاد: مشتقة من القود وهو القصاص.

يقرّر النص العدالة التّامة في يوم القيامة .. تلك العدالة التي لا تضيّع حقًّا حتى للعجماوات .. ليس هناك حق يضيّع .. فكُلّ حقٍ يؤدَّى إلى صاحبه حتّى يقاد للشاة الجلحاء التي كانت تتعرّض إلى هجمة شرسة مؤذية من الشاة القرناء تستغلُّ ضعف التي

لا قرون لها.

وعلى الرغم منْ أنَّ الحيوانات سيقال لهاكوني تراباً في اليوم الآخر، ولكنّها تحشر قبل ذلك للمحاسبة، وينتصف الجبّار العادل للضعيفِ فيها منَ القوي.

إنَّ عَرْضَ هذا المشهد الغيبي الذي سيقع في يوم القيامة ليرسِّخ في النفوس معنى العدالة الإلٰهية في ذاك اليوم.

وإنَّ هذا ليضفي عَلَى النفسِ سعادة ورضى لا سيّما إنْ كان الإنسانُ مظلوماً، وقعدت سلطات الدُّنيا عن نصرته والانتصاف له منْ ظالمه..

[الرسالة ص ١٤٠]

• **الجَنَّةُ والنَّار**: وصف الجنّة، وصف النّار،..

• **قال البرّاء**: أهديت لرسول الله ﷺ حلّة حرير، فجعل أصحابه يلمسونها ويعجبون من لينها..

فقال «عليه الصّلاة والسّلام» أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنّة خير منها وألين [متفق عليه] .. [الرسالة ص ١٦٣].

• **عَن أسامة قال**: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقول: «يؤتى بالرجلِ يَوْم القيامة، فيلقى في النّار، فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار بالرّحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون:

يا فلان! مالك؟ ما أصابك؟ ألم تكُن تأمر بالمعروفِ وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه. [رواه البخاري ومسلم].

تندلق: تخرج، أقتاب بطنه: أمعاء بطنه واحدها قتب.

منظر شنيع، ومشهد كئيب، رجل كان في الدنيا يأمر بالمعروفِ، ولكنه لم يكن يأتيه، وكان ينهي عن المنكر ويأتيه، يؤتى بهذا الرجل يوم القيامة، فيلقى في النار وكأنه قطعةٌ منَ الحطب، فتندلق أمعاؤه فيدور بالنّارِ كما يدور الحمار بالرَّحى.

وليس هُناك صورة تبلغ مِنَ الفظاعة ومَنْ إثارة التقزُّز من صورة الرجل الذي خرجت مصارينه مِن بطنه وهو يدورُ في النارِ كما يدور الحمار في الرحى. واختيار (الحمار) من بين أنواع الحيوان يتناسب مع تحقير صورة هذا الرجل.

ويبدو أنَّ عذابه كان أليماً ومثيراً للانتباه ممّا جعل أهل النّار يجتمعون عليه وينادونه باسمه: يا فلان! مالك؟ ويذكرونه بماضيه في الدنيا حيثُ كان يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

فيبيّن السّبب الذي جاء به إلى هذا العذاب في النّار.

«قد كُنت آمر بالمعروفِ ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه».

[الرسالة ص ١٨٨]

◦ **الملائكة**: أجسام نورانية، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. والإيمان بهم ركن مِنْ أركان الإيمان..

وتكلّم المؤلف عن وصفهم، ووصف سكناهم وحركاتهم وصلاتهم وقيامهم بالدعاء للصّالحين والاستغفار لَهُم وكتابة أعمالهم وحراستهم. من خلال الأحاديث النبويّة الشريفة.

◦ **الشيطان**: هو المحرق في الدنيا والآخرة، والعصي الأبي الممتلئ شرّاً ومكراً، والمتمادي في الطغيان .. خلق من النار .. تكلمت الرسالةُ عن الشيطان والمرأة، الشيطان والبيت، الشيطان ومعركته وعرشه وتعاظمه ومزماره واستراقه السّمع، الشيطان والصّلاة، الشيطان وتأثيره والحرز منه، ..

عَنْ أبي هريرة «رضي الله تعالى عنه» أن النبي ﷺ قال: «إذا نودي بالصّلاةِ أدْبَر الشيطان وله ضراط حتّى لا يسمع التّأذين. فإذا قضى التأذين أقبل، حتّى إذا ثُوّب بالصّلاةِ أدبر، حتى إذا قضى التثويب أقبل، حتّى يخطر بين المرء ونفسه يقولُ له: اذكر كذا واذكر كذا لما لم يكن يذكر من قبل، حتّى يظلّ الرجلُ ما يدري كم صَلّى». [متفق عليه].

صورة تظهر الشيطان بمظهر السخيف المسيء .. الّذي يفرُّ مِنَ الخير ويكره سماع الحقّ .. ها هوذا يدبر له ضراط عال حتّى لا يسمع كلمة التوحيد وشعار الإسلام ... [الرسالة ص ٢٤٦].

◦ **الفتن:** فتنة المسيح الدّجّال .. ، فتن كرياح الصّيف، فتن كقطع الليل المظلم.. ، فتنة عمياء صمّاء بكماء..

◦ **متفرّقات:** أمور تتّصل بعالم الغيب: الروح، الإيمان، الشّيب نور المسلم يوم القيامة، ..

عَنْ عَبْدِالله بن عمرو قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ : «لا تنتفوا الشَّيْبَ فإنّه نور المسلم يَوْمَ القيامة» [رواه أبو داود والترمذي].

الشَّيبُ نور المسلم يَوْمَ القيامة .. إن هذا الشَّيب الذي يحزن لحلوله الناس، ويفرون منه بالنتف أو الصبغ أو ما إلى ذلك، إنه يكو نور المسلم يَوْمَ القيامة، ومَا أغلى النور في ذلك اليوم العصيب، وما أشدَّ حاجة الناس إليه.

وهناك تناسق جميل في الصُّورة، فإنَّ مما يُناسب الشَّيب الأبيضَ النّور والصورة هُنا قائمة عَلَى التَّشبيه. [الرسالة ص ٢٧٩].

وتكلّم المؤلفُ عن عمل الإنسان، الضَّلال ختم، الظُّلم ظُلمات، وقصّة اللّعنة، والبراق، والوحي، بعث الناس كنبات البقل، الثواب كالجبال...

◦◦ **البابُ الثاني:** «الصُّورُ الحسيَّةُ والمعنويّة في عالم الشهادة» وهذا البابُ انقسم بحسب طبيعة موضوعاته إلى فصولٍ قصيرة، تناولت: الصَّلاة، الصَّدقة، الزّكاة، الصوم، الحج، الجهاد، الذكر والدُّعاء، الأمر بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر، برّ الوالدين، صلة الأرحام، المؤمن، المسلم، الإنسان..

◦ **الصَّلاة:** مِنْ أعظم أركان الإسلام..

عَنْ أبي هريرة «رضي الله عنه» قال قال رسولُ اللهِ ﷺ مَنْ غدا إلى المسجد أو راح

أعدّ الله له نزله من الجنّة كلما غدا أو راح» [البخاري].

إعداد متواصل متكرّر لنزل المسلم في الجنّة، كُلّما ذهب إلى صلاة الجماعة ... وفي كُلّ مرة يزدان هذا النُّزل وتكثَر فيه وسائل الإكرام مادام الله تبارك وتعالى هُوَ الّذي يتولّى هذا الإعداد.

ولنا أن نتصوّر مدى الإكرام الّذي يفوق الخيال عندما يعد الله للمرء المصلّى نزله في الجنّة كُلّما غدا أو راح إلى المسجد.

إنّها صورة قائمة على الإخبار عمّا سيكون لمن يعمر بيوت الله ويؤدي صلاة الجماعة، وهي ترمي إلى التّرغيب في هذه الطّاعة الدينية الرفيعة. [الرسالة ص ٣٠٩].

وَعَن أبي هريرة «رضي الله عنه» قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أمَا يخشى أحدكم إذا رفع رأسه قبل الإمام أن يجعل الله رأسه رأس حمار...» [البخاري].

تهديد شديد مخيف يوجّه إلى أولئك الذين يُسابقون الإمام فيرفع أحدُهم رأسَه قبل الإمام، ويدعوهم إلى التفكير في المصير الذي ينتظرهم يوم القيامة: ألا تخشى أيُّها السَّابقُ أنْ يجعل الله رأسك رأس حمار؟ تهديد جاء عن طريق الموازنة .. وإنّها لفضيحة منكرة.. [الرسالة ص ٣١٩].

◦ **الزّكاة**: هي الركن العملي الثاني من أركان الإسلام، ولعظم شأنها قرنت في مواضِعَ كثيرة من كتاب الله تعالى بالصّلاة..

والزكاة والصّدقة والعطاء والإنفاق ألفاظ وردت في الكتاب والسُّنّة بمعان متقاربة..

◦ **الصَّوم**: ركن من أركان الإسلام الّتي بُنى عليها .. عَنْ أبي هريرة «رضي الله عنْه» قال: قال رسُولُ ﷺ: قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: كُلّ عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنّه لي وأنا أجزي به، والّذي نفس محمد بيده لخلوف فمِ الصائم أطيب عند اللهِ من ريح المسك. للصَّائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح، وإذا لقى ربَّه فرح بصومه» [متفق عليه].

شأن الصيام كبير عند الله، فرائحة فم الصائم الكريهة عادة، والّتي تنطلق منه بعد الزّوال - أطيب عند اللهِ منْ ريح المسك.

وهكذا الموازنة بين الرائحتين (رائحة فم الصائم ورائحة المسك). وتفضيل خلوف الصّائم يظهر فضل الصّائم عند الله بشكلٍ جليّ واضح. [الرسالة ص ٣٥٩].

• **الحَجّ**: ركن من أركان الإسلام، وهو فرض عَلَى مَنِ استطاع إليه سبيلاً.

عَنْ أبي هريرة «رضي الله عنه» قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمُّهُ». [مسلم].

في هذا الحديث الَّذي يبيّن فَضْلَ الحج، وما أعدّ الله من الثوابِ لمن يؤدّي هذه العبادة صورتان جميلتان.

١ - أمّا أولاهما فهي قوله: (مَنْ أتى هذا البيت) يعني مَنْ حَجَّ أو اعتمر، ولكنَّ التَّعبير بـ(مَنْ أتى البيت) فيه صورة تعتمد عَلَى ذكر الأمور بالشكل الحسّي الملموس.

٢ - وأمّا ثانيتهما فهي قوله: (رجع كما ولدته أمُّه) يريد الخلاص مِنَ الذّنوب. [الرسالة ص ٣٦٢].

•• **البابُ الثّالث**: «الصّور الحسيّة والمعنوية في وسائل التصوير وعلاقاته» وجعل الباحثُ دراسته في قسمين: تناول في أوّلهما وسائل التصوير الفنّي، وقد حصرها في: التصوير بالوصف، التصوير بالقصّة، التصوير بالموازنة، التصوير بالاستعارة والتشبيه والكناية..

أمّا القسمُ الثاني من هذا الباب فكان دراسةً تحليلية من خلال الأحاديث النبويّة لعلاقات التّوصير الفني، فاهتمّ المؤلفُ بدراسة علاقة التصوير بالنفس، وعلاقته بالبيئة والمجتمع، وعلاقته بالحسِّ في أشكاله المختلفة..